صاروخ واحد وسبعة أسئلة

01 مايو 2021 - 10:07

عريب الرنتاوي

ليس المهم إن كان الصاروخ الذي سقط على مقربة من «قرية ديمونا النووية» الإسرائيلية، أو انفجر فوقها، طائشاً أم موجّهاً، أرض – جو أم أرض – أرض، أطلقته أيادٍ سورية أم إيرانية، جاء كرد فعل على غارة إسرائيلية في سورية، أم انتقاماً للضربة في مفاعل «ناتنز»...الأهم، أن صاروخاً واحداً «يتيماً»، قد فتح الباب لسيل من الأسئلة والتساؤلات، شغلت اهتمام الصحافة ووسائل الإعلام، في المنطقة، ودولياً إلى حد ما، واحتلت حيزاً واسعاً على صفحات التواصل الاجتماعي في طول الإقليم وعرضه.

السؤال الأول؛ حول مدى كفاءة شبكة الدفاعات الجوية الإسرائيلية المركبة، من أربع طبقات: القبة الحديدية (للصواريخ والقذائف قصيرة المدى)، مقلاع داود (للصواريخ المتوسطة)، صواريخ حيتس/ أرو/ السهم، للارتفاعات المتوسطة والعالية، وصواريخ الباتريوت المضادة للصواريخ الباليستية بعيدة المدى...شبكة معقدة ومتراكبة من الدفاعات الجوية، لم تحل دون اختراق صاروخ واحد، برأس متفجر وازن، من الاقتراب من أكثر المناطق تحصيناً وحساسية من منظور الأمن الإسرائيلي: ديمونا.

لم يكسر الصواريخ قواعد اللعبة، بيد أنه كسر «التبجح» و»الخيلاء» الإسرائيليين، حتى أن صحف إسرائيل، قبل غيرها، وأكثر من غيرها، أخذت تعبر عن القلق من مغبة انكشاف «الجبهة الداخلية» الإسرائيلية، برغم وعود الحماية والتحصين، التي ما انفك يطلقها، قادة المستويين الأمني والسياسي في إسرائيل.

السؤال الثاني؛ طائش أم موجّه؟، إن صحت رواية إسرائيل الرسمية، عن صاروخ طائش، تبقى أسئلة التحصين والحماية واردة تماماً وصالحة للغاية، لكنها تعطي الانطباع بأننا أمام صاروخ «يتيم»، وحادث عرضي، غير مرشح للتكرار مجدداً...أما إن صحت الرواية الإيرانية، التي تحدثت عن صاروخ محمّل برأس حربية، وبالعديد من الرسائل، فمعنى ذلك أننا أمام واحدٍ من احتمالين: (1) أن تكون إيران، بصدد عمل انتقامي، رمزي في هذه المرحلة، ممهور بخاتم «الفاتح 110»، وبما يعني أننا آثرنا هذه المرة توجيه رسالة، وليس التسبب بكارثة، مع أننا قادرون على توجيه الرسائل والكوارث في الوقت عينه...(2) أن تكون إيران، وبالتشاور مع حلفائها في سورية، قد قررت وضع حد للعربدة الإسرائيلية في السماوات السورية، وأن الصاروخ لن يظل «يتيماً» إلى أبد الآبدين، وأن معادلة جديدة للردع المتبادل في طريقها لأن ترى النور.

السؤال الثالث؛ كيف يمكن كسر معادلة الاستباحة الإسرائيلية للأجواء السورية؟...الصاروخ يؤشر إلى طريق سورية، ومن خلفها إيران لفعل ذلك، لكن شرط ألا يكون حادثاً منفرداً، أو متقطعاً وبفواصل زمنية متباعدة للغاية...إن ردّت سورية وإيران على كل غارة إسرائيلية، بصاروخ أو أكثر، في العمق الإسرائيلي، وليس وصولاً إلى النقب في أقصى الجنوب دائماً وبالضرورة، عندها ستجد إسرائيل نفسها أمام واحدٍ من خيارين اثنين: أن ترد بقوة نار أعلى وأشد، مقامرةً بالانزلاق إلى مواجهة مفتوحة على جبهتها الشمالية، وبما ينذر بانتقال شراراتها إلى جنوبي لبنان كذلك...أو أن تشرع في التفكير مطولاً، بل ومطولاً جداً، قبل أن تعطي لسلاحي الجو والصواريخ، أمر العمليات بالانقضاض على أهداف سورية أو إيرانية في سورية، وهي العملية التي تحدث بمعدل أسبوعي تقريباً، ومن دون أي رد فعل يذكر.

السؤال الرابع؛ لماذا الآن؟...واشنطن وطهران في ذروة عملية تفاوضية، محفوفة بكل التكهنات الإيجابية المتفائلة، وبقرب عودتهما إلى الاتفاق النووي، برغم اعتراض إسرائيل، وبالضد من إصرارها على الحيلولة دون حصول ذلك...علاقات الولايات المتحدة بإسرائيل، ليست في أحسن حالاتها في عهد إدارة بايدن، بخلاف ما كان عليه طيلة سنوات ترامب الأربع في البيت الأبيض...إيران تراهن على أنه بمقدورها أن ترد على إسرائيل، دون خشية على مصير مفاوضات فيينا، ودون خشية من ردة فعل أميركية قاسية أو ذات شأن...الآن، هو الوقت المناسب للرد على الضربات الإسرائيلية...والآن، هي الفرصة لإعادة رسم قواعد الاشتباك وترميم توازن الردع الذي انهار مؤخراً لصالح إسرائيل.

السؤال الخامس؛ ويتعلق بحسابات دمشق، وليس فقط بحسابات إيران وأولوياتها، فهل لسورية مصلحة في رفع منسوب التعرّض لإسرائيل؟ ...الجواب نعم، فالأسد يواجه حرجاً متراكماً من مغبة الانتهاك الإسرائيلي المتكرر لسيادة سورية وحرمة أجوائها، وضربها في عقر عاصمتها، ومع أنه قادر على ما يبدو على تحمل هذا الحرج وضغوطه، إلا أننا لا نعرف إلى أي مدى يمكن لهذا الوضع أن يستمر.

لكن لسورية كذلك، مصلحة في تحريك ملفاتها الراكدة، على وقع حالة السكون والسكينة الممتدة لثلاث سنوات، تشهد تثبيت دعائم الكيانية الكردية في الجزيرة وشرقي الفرات، وترسيخ دعائم احتلال تركي مقيم في شمالي غربي البلاد، فضلاً عن عملية إعادة تأهيل جبهة النصر (هيئة تحرير الشام)، وإمارة الجولاني في إدلب...هذا الركود إن استمر، ينذر باقتطاع أكثر من ربع مساحة سورية، وربما إلى الأبد.

والأسد، يرزح مع أزيد من 80 بالمئة من الشعب السوري في مناطق سيطرته، تحت نير حرب اقتصادية ضروس، وعقوبات دولية صارمة، وخانقة اقتصادية غير مسبوقة، وجائحة صحية فتاكة، وإعادة إعمار مع وقف التنفيذ، ولاجئين لا يعودون ولا يتوطنون في الدول المضيفة...هذا الوضع، ينذر بانفجارات داخلية، وربما يكون من الأفضل، تغيير وجهتها صوب انفجار مع إسرائيل، شريطة أن يكون محسوباً، بل ومحسوباً بدقة، حتى لا ينقلب السحر على الساحر.

السؤال السادس؛ ماذا عن الموقف الروسي؟ ...روسيا محرجة جراء تمادي إسرائيل في اعتداءاتها المتكررة على سورية، في ظل صمتها، وصمت منظوماتها الصاروخية المضادة للطائرات والصواريخ...لكنها ليست بوارد صدام مع إسرائيل، فلديها من الصدامات مع الغرب والناتو على أكثر من جبهة، وبعضها أكثر أهمية من سورية، مثل أوكرانيا والقرم، والأرجح أنها لا تريد فتح جبهة جديدة وهي على هذا الحال.

لكن روسيا لا تمانع في رفع منسوب المواجهة والتصدي للعربدة الإسرائيلية، في الجو والبحر...فهي اليوم، توفر الحماية لقوافل السفن الإيرانية المحملة بالنفط والسلع لسورية، لتفادي «القرصنة» الإسرائيلية، وتعطي بين الحين والآخر ضوءاً أخضر للتصدي للطائرات والصواريخ الإسرائيلية التي تعربد في الأجواء السورية.

خيار روسيا الأول، إدماج سورية في عملية تفاوض وسلام مع إسرائيل، تكون بوابة موسكو لتجديد دورها في هذه العملية، وعبر البوابة السورية الواسعة والعريضة...لكن إسرائيل ليست راغبة في فتح هذا المسار، إلا بالحدود الضيقة المتعلقة باسترداد جثث جنودها القتلى والبحث عن رفات جاسوسها إيلي كوهين...وواشنطن ليست بوارد توفير ممر آمن لموسكو للقيام بدور شرق أوسطي أكبر وأوسع نطاقاً...إن ارتفع منسوب المواجهة «المحسوبة» بين إسرائيل من جهة، وكل من سورية وإيران من جهة ثانية، فربما يوفر ذلك لروسيا الفرصة التي تنتظرها بفارغ الصبر.

السؤال السابع؛ ما الذي نتوقعه في قادمات الأيام؟...التحليل السياسي يعطي الأرجحية لتكرار عمليات التعرض للطائرات والصواريخ الإسرائيلية، حتى في الأجواء الإسرائيلية، وقد يتخللها إطلاق «صواريخ طائشة» عديدة، وبعضها قد لا يظل طائشاً، وقد يلحق أضراراً مادية وبشرية...رد الاعتبار لكبرياء طهران المهدورة في «ناتنز» وغيرها، يمكن أن يكون هذا طريقه...وطريق الأسد للخروج من أطواق العزلة التي تعتصره، وتعتصر شعبه معه، يمكن أن يمر بعملية تسخين مدروسة لخطوط التماس مع إسرائيل...وما لم تتحرك الدبلوماسية في مسعى استباقي، فربما نشهد المزيد مما حصل في أكناف «ديمونا».